قضايا النهار

كتاب

"المثقفون الايرانيون والغرب" ل

نصوص من الكتاب

للبحث في تاريخ ايران الفكري المعاصر، لا بد من التحرّك داخل الثالوث الثقافي المتمثل بـ: اولا: تأثير الثقافة والحضارة الغربيتين، وثانيا: تراث ما قبل ايران الاسلامية، وثالثا: طبيعة فهم المثقفين للعاملين الاولين. ان اهمية العامل الاول يمكن ملاحظتها في الابعاد الفلسفية والعلمية والاقتصادية والعسكرية للغرب، والتي تركت تأثيرا حتميا على الفكر ونمط الحياة اليومية في ايران. اما اهمية العامل الثاني فتنبع من كونه يشكل اساس الهوية الثقافية والفكرية للايرانيين، فيما تأتي اهمية العامل الثالث من كون المثقفين يتولون مهمة الابداع، ونقل الثقافة، وبذلك ادوا دور الوسيط بين الثقافة الغربية وتراث ايران ما قبل الاسلام.

وداخل اطار هذا الثالوث الثقافي يبرز السؤال: ما هو الغرب؟ وكيف يجب ان نتعامل معه؟ وما هي عناصر الهوية الايرانية؟ وما هي العلاقة السليمة بين الدين والعلم والفلسفة؟ وهل الدين في مجتمع يمر بمرحلة نمو، مثل ايران، يشكل طارئا تاريخيا؟ وهل يجب اعتبار الحداثة، ظاهرة عالمية حتمية، ام ان النتاجات الغربية تتناقض مع الثقافة الايرانية؟

للعثور على اجوبة عن هذه الاسئلة، لا بد من البحث في افكار المثقفين الايرانيين، من خلال نتاجاتهم الفكرية حول الدولة والغرب.

بعد قيام ثورة شباط ١٩٧٩ صدرت دراسات وابحاث كثيرة حول المذهب الشيعي وعلماء الدين في ايران، الا ان القليل من ذلك تناول نتاجات المفكرين الدينيين من غير رجال الدين، والاقل منها، هي تلك التي اهتمت بأفكار المثقفين غير الدينيين، بل نُظر اليهم دائما على انهم لاعبون هامشيون في ساحة الفكر الايراني: وخلافا لما يحدث في بقية الثورات، فإن المثقفين الايرانيين لم يكونوا في طليعة الحركة الثورية التي انتصرت في شباط ١٩٧٩، ومع ذلك فإن من الخطأ الكبير الاعتقاد ان هؤلاء لم يؤدوا دورا اساسيا في تغذية الثورة فكريا. من هنا، فإن دراسة تبلور حركة الثورة في ايران قبل ١٩٧٩ تبدو بلا جدوى من دون الاخذ في الاعتبار، المواقف النظرية والنضال السياسي للمثقفين غير الدينيين.

وخلال السنوات التي انتهت بانتصار الثورة، شاعت في المحافل والاوساط الفكرية في ايران، الاتجاهات المحلية التي هي اعم واشمل من "الاسلام الشيعي". صحيح ان المذهب الشيعي يعتبر جزءا من الثقافة السياسية لايران الا انه لم يكن الركن الوحيد لهذه الثقافة. ان دراسة افكار ونتاجات النخب المثقفة المعاصرة في ايران ابتعاده عن السياسة، الا ان الخط التقليدي هو الذي حظي بالدعم الحكومي. فوضعت بتصرفهم منابر عدة وقدمت الدولة دعما ماليا لمؤسساتهم ونيطت بهم ادارة عدد من المؤسسات والمراكز الثقافية الحكومية مثل جمعية القلم ومؤسسة ثقافة ايران والمجلس الاعلى للثقافة ومؤسسة فرح بهلوي ومؤسسة الفارابي وعدد آخر من المؤسسات. وكان رموز هذا الخط اساتذة بارزون في تدريس اللغة والاداب الفارسية في الجامعات، وكانوا يضعون بانفسهم المناهج الدراسية ويشرفون على تطبيقها، ولم يكن الطلبة يتلقون دروسا سوى في النصوص الادبية القديمة. في حين كانت تنمو حركة الشعر المعاصر، وهو ما دفع بالكثير من المثقفين والفنانين الى تسييس الآداب كوسيلة لمواجهة حلف المثقفين التقليديين مع الثقافة الحاكمة وانعزال الحداثيين. هذه الثقافة "الملتزمة"، رفضت نظرية "الفن لأجل الفن" التي اطلقها الحداثيون والتقليديون على السواء. فقد رفع الفريق الاول (الحداثيون) شعار "الفن والادب الملتزم" وفي المقابل اعلن الفريق الثاني(التقليديون)، دعمهم لاستراتيجيا النضال السياسي ضد الجهاز الحاكم. وكانت النتيجة ان انبثق تيار ثقافي جديد يمتاز بالقوة و"النضالية" وهو ما تعكسه حياة ونتاجات الكاتب والناقد احمد بهرنكي (١٩٣٩-١٩٦٨). فبعد ان حصل على الليسانس في اللغة الانكليزية من جامعة تبريز، انخرط في سلك التعليم الابتدائي وعرف بنهجه اليساري ورفضه لمنهج عدم الالتزام في الادب، لذا اختار التعليم ليمارس عملا ادبيا مهما ومهملا في الوقت نفسه، وهو ادب الاطفال. وكان متأثرا بشدة، بمثلث ادبي – سياسي: الواقعية الاشتراكية الروسية، وحرب العصابات لثوار اميركا اللاتينية والثورة الثقافية التي كانت تشهدها الصين آنذاك.

ورغم كل النشاط الذي مارسه المثقفون الملتزمون، الا انهم كانوا يملكون الكثير مما يبرر استياءهم. ورغم ازدياد الثروة النفطية في ايران، الا ان الفنانين والشعراء كباقي المثقفين، يعتبرون انفسهم مهمزومين سياسيا. وبعد انقلاب ١٩٥٣ (ضد مصدق) في ايران، بادر الكثير من الشعراء المرتبطين بالجبهة الوطنية او اليسار الى تكريس شعرهم لوصف تلك الهزيمة عاكسين حال الاحباط واليأس. ومن اولئك الشعراء "اخوان ثالث".

ولو تتبعنا نتاجات الادباء الايرانيين في الفترة بين ١٩٦٠ -١٩٧٠ نلاحظ لجوء هؤلاء الى الكثير من الاستعارات والاشارات غير المباشرة والتلميحات هربا من الرقابة... في نيسان عام ١٩٦٨ اعلن الكتاب الا انه سرعان ما انشق عن الحزب ومعه عدد من الكوادر المثقفين بسبب خلافات حول شؤون الحزب الداخلية لكنه ظل مؤيدا للاتحاد السوفياتي. الا ان اذاعة موسكو سارعت الى نعته بالخائن، فآثر الانسحاب من الساحة السياسية ليعود اليها ثانية عام ١٩٥٠، ومع الانقلاب على مصدق عام ١٩٥٣ قطع آل احمد جميع صلاته التنظيمية واتجه الى التعليم والترجمة والكتابة دون ان يفقد موقعه كناشط سياسي مستقل.

ويعتبر كتابه "التغرب" شديد الجرأة في طرح مفهوم التغرب والانتقادات اللاذعة التي تضمنها لنسلطة آنذاك. وظل هذا الكتاب يحظى بتقدير اجيال عدة من المثقفين الايرانيين.

يبدأ آل احمد كتابه بتعريف "التغرب" بالقول: "التغرب هو مجموعة اعراض اصابت حياة اناس من هذا الجانب من العالم، وثقافتهم وحضارتهم واسلوب تفكيرهم فاعتمدوه، دون اي ارضية تاريخية". قصد آل احمد بهذه الصراحة الشديدة اثارة حساسية الشعب الايراني حيال مشكلة الانقطاع عن الجذور في البلاد. يقول: "عموما، فإن الحديث هنا هو عن مرض عارض جاء من الخارج وتنامى في بيئة مستعدة لذلك. علينا التعرف على ملامح هذا المرض، واسبابه، لنتمكن من علاجه".

لقد نظر الى "التغرب" كمرض اجتماعي مفسد من زاويتين: المصدر الخارجي والارضية الصالحة لنموه في المجتمع محددا بذلك بعديه الخارجي والداخلي.

كان آل احمد يرى ان بامكان هذا المرض المتفشي، اي "التغرب" ان يهدد اساس الاصالة الثقافية والاستقلال السياسي، وسلامة الاقتصاد وكان يدعو الى الوعي حيال هذا "المرض". وان يقارن بين "الشرق" و"الغرب" او بين "نحن" و"اولئك" بالقول "عندما نهض الغرب، جلسنا نحن وعندما افاق صناعيا ونهض غرقنا نحن في نوم اهل الكهف".

لكن آل احمد كان يوجه سهام نقده الى تلك الفئة من المثقفين الايرانيين الذين كانوا يرون في الغرب بديلا ومصيرا. وكان يرى ان هؤلاء المثقفين مسؤولون عن تهيئة ارضية مؤاتية لدخول الغرب. ولهذا فقد كان يدين كافة المفكرين البارزين في مرحلة الثورة الدستورية (المشروطة) وقد ثار غضب آل احمد عندما لاحظ عدم اكتراث المثقفين الايرانيين، بالدور الذي اداه رجال الدين في احداث تاريخية مثل تحريم التبغ، والثورة الدستورية وتأميم النفط وانتفاضة ١٩٦٣ بقيادة آية الله الخميني مما دفعه الى وضع كتابه "في خدمة وخيانة المثقفين" الذي تضمن نظريته القائلة بأنه في تاريخ المئة اوساط رجال الدين. هذه الظروف حما فرصة متاحة لمثقفين دينيين من غير رج الدين للظهور كمنظّرين بارزين غير رسمي للنظام الجديد. هذان المفكران هما رض داوري اردكاني وحسين حاج فرج دباغ (ال اتخذ اسما مستعارا هو عبد الكريم سروش

تعريف "الغرب"

بدأ النقاش بين داوري سروش ح مواضيع مثل: ما هو الغرب؟ كيف يم تحليله والتعامل معه؟ وهل في الغرب نتعلمه؟ كان داوري يعتقد ان المثق الايرانيين بحاجة الى ممارسة فكر نقدي ـ الذات وحقيقة تاريخ الغرب. فهو يعتقد هذا النقد الذي يتوخى الفلسفة الانسانية والتجديد سيفرغ الفكر الغربي من قيمته. وهو ينظر الى الغرب كمجموعة واحدة، فلا يراه وجودا سياسيا فحسب بل هو "طريقة تفكير وسلوك تاريخي بدأ منذ اربعمئة عام في اوروبا وانتشر تدريجا الى ارجاء العالم، فالغرب في عبارة واحدة هو غروب الحقيقة القدسية والظهور البشري الذي يرى نفسه الاول والآخر ومحور كل شيء ومالك ك يرى كماله في تملكه لكل شيء، حت القدس، وحتى لو اراد الغرب اتباع

المذهب الشيعي يعد احد الاركان الاساسية لايديولوجيا الثورة، الا انه لم يكن الركن الوحيد، فالذي دفع الكثير من المثقفين الايرانيين الى الالتحاق بتيار الثورة، او الاتجاه نحوه، كان اكثر من عواطفهم الدينية، ذلك ان الثورة كانت متعددة العامل ومتنوعة التيار المشاركة في صناعتها. ويمكن القول ان الضعف التنظيمي لبقية القوى السياسية، ادى الى بروز الايديولوجيا الاسلامية على مسرح الثورة اكثر من غيرها.

❋ ❋ ❋

لما اوصدت الحكومة في عهد الشاه ابواب النشاط السياسي والاجتماعي الفاعل، تركت ابواب الادب والفن والرياضة مفتوحة كسبيل لتفريغ طاقات الشباب دون تعريض الحكم لأي خطر. لذلك اصبحت هذه الساحة، مركزاً للمعارضة، خصوصا المثقفين غير الدينيين، الذين استثمروا هذه الفرصة لتوجيه انتقادات خفيفة لكنها مؤثرة، خصوصا، عند الحديث عن مواضيع الرقابة، والفساد، والقمع والاستبداد.

هذا الوضع الجديد للساحة الادبية افرز ادبا ملتزما، مقابل ادباء محايدين، مما احدث انقساما داخل هذه الساحة. فانضم الكثير من الفنانين والشعراء والمترجمين والكتاب الى خط الادب الملتزم الذي اعتبر نفسه صوت الفقراء والمحرومين. اما انصار الادب المحايد، فقد ارادوا بلورة "نهج ادبي خال من السياسة". وكان طبيعيا ان يدعم الحكم الخط الثاني، مما عمق الهوة بين النهجين، فاصبح الملتزمون ينعتون انصار "الادب المحايد" باللااخلاقية، والابتعاد عن الشعب، والتصنع، وعدم الشرعية، والمهروب من الواقع. فيما اعتبروا ان نهجهم يمثل الوفاء والاخلاق والالتزام بالواجب.

لقد اصبح الادب والثقافة سلاحا للادباء والمثقفين الملتزمين، في صراع القوة مع النظام، ورفع الوعي السياسي للشعب، وبعض هؤلاء اقتدى بمثقفين اجانب مثل برتولت بريخت وانتوني تشيخوف، ونيكولاي تسرنيشفسكي ومكسيم غوركي وبابلو نيرودا وروماين رولان. فكان الكتّاب والشعراء الاجتماعيون الملتزمون، كقدوتهم، ينتمون في شكل كامل الى الفكر اليساري. ومن هؤلاء شعراء ومترجمون معروفون مثل بزرك علوي، ورضا براهني، ومحمود اعتمادزاده وعلي اشرف درويشيان، وغلام حسين ساعدي، واحسان طبري...

اما جناح "الادباء المحايدين" فكان يتشكل من قسمين رئيسيين: تحديثي وتقليدي، اذ زعم الجناح التحديثي اشخاص مثل هوشنك كلشيري وشارخ مسكوب ونادر نادربور كانوا متأثرين بنتاجات ادكار النبو صموئيل بيكيت ووليم فاكنر وجيمس جويس. اما الخط التقليدي فكان يتزعمه عدد من كبار السن من انصار المدرسة الكلاسيكية، مثل رضازاده شفق وبديع خان فروزانفر، وجلال الدين همايي وسعيد نفيسي وآخرون.

ورغم ان الخط التحديثي حافظ على

اعلان الحكومة بيعها اقامة معرض للكتاب والمترجمين الايرانيين" الذي كان مقررا في شهر شباط. هذه الخطوة التي واجهت معارضة من الكتاب الملتزمين اجبرت الدولة على صرف النظر عنها فأصبح هذا النصر المتواضع دافعا للكتاب للتصعيد الجماعي ضد السلطة، فأسسوا "اتحاد الكتاب". وقد انصبت حوارات الاتحاد منذ البداية على مواضيع مثل الحرية، والموقع الاجتماعي للكاتب، واهمية الادب الملتزم.

ومع ذلك فان الموت المفاجئ للرجل الاول في الاتحاد، جلال آل احمد وحدوث اصطفافات داخلية وتباين الآراء بين الاعضاء ادت الى انفراط عقد الاتحاد. لكن نشاط الاتحاد خلال عمره القصير، ساعد في زيادة حدة ظاهرة النقد الموجه ضد السلطة.

وخلال الفترة بين ١٩٧١ و١٩٧٥ عانى الكتاب ذروة الرقابة والرعب والاضطراب الفكري، ودخل الكثير من الادباء الملتزمين السجن، فيما وضع آخرون في قائمة السلطة السوداء، ومنع قسم ثالث من الكتابة. الا ان تغييرات عدة داخلية تتعلق بتنامي نشاط المجموعات المعارضة المسلحة، وخارجية تتعلق بوصول جيمي كارتر الى الرئاسة الاميركية واطلاقه شعارات حقوق الانسان وتزايد ضغط الطلبة الايرانيين المقيمين في الخارج، على الحكومة بسبب اسلوب تعاملها مع السجناء السياسيين، كل ذلك دفع الحكومة الى التخفيف من ضغوطها، وهو ما شجع الكتاب والشعراء الايرانيين على اعادة احياء "اتحاد الكتاب" مرة اخرى.

الغرب – الآخر

بين عامي ١٩٥٠ و١٩٧٠ وفي موازاة تحول المثقفين غير الدينيين الى موقع "الآخر" بالنسبة الى السلطة، بدأ تحول هؤلاء المثقفين الى "الآخر" ايضا في مقابل الغرب. وفي حين كان التباعد مع السلطة، دون واسطة محددا، خطيرا وواضحا فإن موقعهم "الآخر" امام الغرب كان يبدو خاليا من الاخطار، لكنه مبهم. فالعدو ليس الدولة في وجودها المسلح، واساليبها القمعية بل هو الغرب الاكثر بعدا والاوسع شمولا والاكثر غموضا. وحيث ان المثقفين غير الدينيين كانوا يرون النظام الايراني امتدادا لكيان الغرب، فإن ثنائية موقعهم حيال الغرب والنظام الايراني اصبحت غير قابلة للفصل.

من المواضيع التي طرحت للبحث في تلك المرحلة وتركت تأثيرها الملحوظ على الوعي الاجتماعي للايرانيين حيال الغرب باعتباره "الآخر"، موضوع "التغرب". هذا الموضوع بدأ الخوض فيه بعيد الحرب العالمية الثانية ومع صدور كتاب "التغرب" للكاتب جلال آل احمد عام ١٩٦٢ والجدل الذي اثاره، دخل النقاش حول هذا الموضوع مرحلة اكثر جدية.

جلال آل احمد (١٩٢٣ – ١٩٦٩)

رغم نشأته في عائلة دينية شمال ايران، الا ان آل احمد انخرط في صفوف حزب توده (الحزب الشيوعي) الايراني، وتبوأ بعد فترة قصيرة منصبا رفيعا في قطاع النشر الحزبي،

ان يحققوا تقدما اجتماعيا".

مرحلة ما بعد الثورة الاسلامية

تعتبر ثورة شباط ١٩٧٩ في ايران، اول حركة ثورية شعبية في العصر الحاضر ادت الى اقامة حكومة دينية، وكما هي الحال مع بقية الثورات الكبرى فإن هذا التغيير الاجتماعي ادى الى تفتح فكري داخل المجتمع، جعل المثقفين الايرانيين امام تحديات جدية. ففي حين كان انصار الاسلام يسعون الى تقديم الثورة كايديولوجيا محددة يمكنها ان تكون بديلا فلسفيا خالدا مقابل العالم الحديث، وجد المعارضون انفسهم مضطرين لتوضيح العوامل التي ادت الى انتصار الثورة والتي تعرضت للتجاهل عمدا. وقد وجد المعارضون ومنهم المثقفون المهزومون والمصدومون في الداخل والخارج ان العلاج الموقت او الطويل الامد، من المعاناة التي اصابتهم يكمن في الانزواء او البقاء على هامش السياسة او مغادرة البلاد...

لقد كانت ثورة ١٩٧٩، حدثا اكبر من مجرد اسقاط نظام، فقد عملت هذه الثورة، ومن طريق تسييس المجتمع، الى تغيير تركيبته الفكرية الى الابد. كما تركت التحولات النظرية، والحوادث التي وقعت بعد الثورة، بصماتها على مسيرة البحث الفكري بين المثقفين الايرانيين. فالنظام الجديد، وعلى عكس القديم، يستند بقوة الى اعلامه واجهزته الحكومية الايديولوجية. ولم يكن بامكان هذه الايديولوجيا ان تظل في منأى من اصداء وتداعيات مرحلة في حال تغيير وافكار جديدة في طريقها الى التبلور فضلا عن ان الحاكمين الجدد كانوا امام سؤال كبير هو: كيف نحكم، وكيف يمكن خلق ثقافة سياسية ثورية، وكيف نوفر المستلزمات السياسية للحكم مع الحفاظ على ثوريته. كل هذه الامور كانت بحاجة الى حلول سريعة. لقد افرزت الثورة امثلة جديدة امام المفكرين الاسلاميين. هل الفقه الاسلامي قادر على تلبية التحديات الاجتماعية والعلمية الجديدة؟ هل التكنولوجيا والوطنية والديموقراطية البرلمانية تنسجم مع الاسلام؟ وما الذي يمكن الثورة الاسلامية ان تقدمه للعالم؟

بعيد انتصار الثورة الاسلامية، ظهرت مؤشرات على انهيار الثقافة السياسية للثورة. فقد بدأ النظام الاسلامي الحرب ضد المعارضين فكريا، مركّزاً هجومه على الليبراليين واليساريين. واصبح ينعت المثقفين والادباء من غير الدينيين بمجموعة المولعين بالغرب، "والغرباء عن ذاتهم" و"المقلدين". الا ان النظام سمح لتلك الفئة من المثقفين الدينيين من غير رجال الدين، ممن رضوا بتفوق رجال الدين، بالبقاء في الساحة.

لكن احدثت وفاة او اغتيال شخصيات سياسية وفكرية بارزة مثل آية الله محمود طالقاني وآية الله محمد بهشتي وآية الله مرتضى مطهري، فراغا فكريا كبيرا في

لاتبات ذاته فقط".

ويتحدث داوري عن "حتمية زوال الغر
فيقول ان المادية والدنيوية تحكمان الغر
وكل ما يفصل بين الذات الانسانية والتسا
امام الله، محكوم بالفشل. ويستنتج
المجتمعات غير الغربية لا تواجه الغرب افر
بل مجموعة واحدة. ومن هنا فهو يرى
"على المثقفين الايرانيين الا يفكروا بمص
الغربيين فردا فردا بل بمصير الغرب ك
واحد".

اما عبد الكريم سروش فيرفض التجري
الشامل والمطلق الذي يعتمده داوري. فه
يرى ان العقل المتوحش والفلسفة الفاقد
الوطن، والعلم بدون حدود ولا جغرافيا، و
مكان النشوء وزمانه، كلها لا يمكن ان تكو
معايير قيمية لمعرفة مدى صحة العقائد
ويخاطب سروش نظيره داوري بالتساؤل
اين ترى حدود الغرب؟ وهل ان الغرب يوجد
اينما وجد الانحطاط الاخلاقي، ام ان الانحطا
الاخلاقي يوجد اينما وجد الغرب؟ هل يجب
القول ان "الروح الغربية" قائمة على اساس
الغرب، ام علينا التفريق بين الغرب و"الروح
الغربية"؟

وعلى عكس داوري الذي ينظر الى الغرب
كجسم واحد، فإن سروش يرى ان هذا
المنطق يضع الناس امام خيارين، اما قبول
الغرب ككل او رفضه ككل ايضا. ويعتمد
سروش مقابل ذلك، منطقا تجزيئيا في نظرته
للغرب، فهو يستخدم مصطلحات ذات دلالات
في هذا السياق، مثل "الفلسفة الغربية"،
و"الفن الغربي" و"الثقافة الغربية" و"جوهر
الغرب"، وعلى هذا فإن العالم غير الغربي لا
يمكنه الوقوف في وجه الغرب ككل، بل
يواجه، الغرب جزءا جزءا او فردا فردا.

وفي مقابل المغالطة الثانية التي يقول بها
داوري، حول فساد الغرب، يقول سروش
ليس بالضرورة ما يأتي من الغرب مفسد، بل
ان المرء بامكانه ان يأخذ الافكار وعلم
السياسة، والتكنولوجيا الغربية دون ان
يصاب بضرر. ويرفض سروش الحدية في
الموقف من الغرب، بحيث لا يخرج عن احدى
حالين اما التسليم الكامل امامه، او العداء، بل
يرى ان العلاقة يجب ان تكون تعاطيا
تحليليا من كلا الجانبين. وفي احدى الندوات
الحوارية في موضوع حوار الاديان، تحدث
سروش عن مضار الاحكام الجزمية، واعتبار
الحق حكرا على شخص، ودعا الى التعارف
المتبادل والتعاون.

وذهب سروش بعيدا الى حد القول ان
الايرانيين يحملون ارث ثلاث ثقافات هي:
القومية (قبل الاسلام) والدينية والغربية.
يقول: على الايرانيين ترسيخ هذه الهويات
الثلاث، بدل الحديث عن تفوق احداها...
وعموما فإن سروش يريد تبديل العقبة
الخيالية بين الايرانيين والغرب مزية لهم، من
خلال التأكيد على ان الارث الغربي هو احد
الاركان الثلاثة للذاكرة التاريخية للايرانيين.

ترجمة س.م.
عن الفارسية

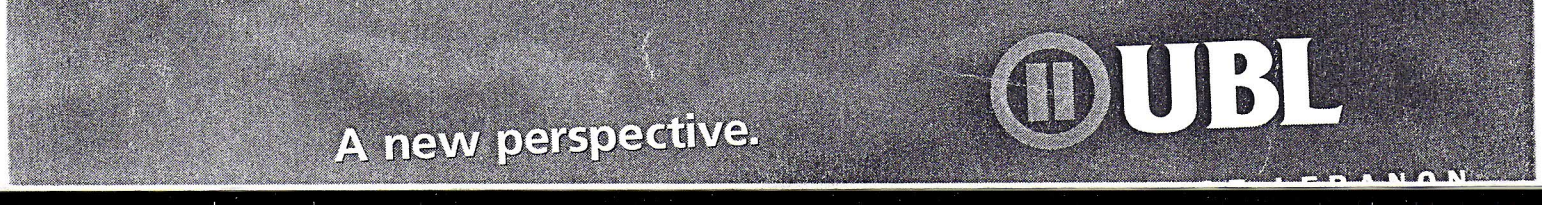

مهرزاد بروجردي

"المثقفون العرب والغرب"، المثقفون الايرانيون والغرب"

بين هشام شرابي ومهرزاد بروجردي

تشغل العلاقة مع الغرب، حيزاً مهماً في ساحة التعاطي لدى اوساط المثقفين في الشرق، بنسب تتفاوت بين شعب وآخر، واذا كان هذا الموضوع طرح للنقاش في الساحة العربية خلال، عصر النهضة وبعده، ثم تراجع هذا النقاش في ما بعد، فان ساحات شرقية اخرى، مثل ايران، ظلت مسرحاً لهذا النقاش، طوال العقود الاخيرة، وقد زاد سخونة خلال العقدين الاخيرين، وتحديداً منذ قيام نظام الحكم الاسلامي على انقاض نظام الشاه وبروز موقف

مناهض للغرب في الخطاب الرسمي، والشعبي على حد سواء.

وهذه المرة، ظهر مثقفون من داخل هذا

والغرب"، وقبل عامين اصدر كاتب ايراني مقيم في الولايات المتحدة هو مهرزاد بروجردي كتابه "المثقفون الايرانيون والغرب".

يشترك الكتابان في المضمون، وهو دراسة موقف مثقفين شرقيين من الغرب، في اطار جدلية شرق – غرب. وكلاهما كتبا باللغة الانكليزية وصدرا في عاصمة الغرب الاولى، واشنطن ومن ثم ترجما الى لغة المعنيين الاصليين به، اي العرب والايرانيين (صدرت الترجمة الفارسية قبل شهرين).

ورغم التشابه في الخطوط العامة للمضمون بين الكتابين، الا انهما افترقا في محطات عدة، ربما أهمها ان كتاب شرابي، اقتصر في معالجته لموقف المثقفين العرب من الغرب، على مثقفي عصر النهضة (١٨٧٥ – ١٩١٤)، فيما خاض بروجردي في موقف المثقفين الايرانيين خلال العقود الاخيرة، وتحديداً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم. مع تركيز على المرحلة التي بدأت منذ ثورة شباط ١٩٧٩ وبروز النقاش حول موضوع العلاقة مع الغرب بثوب جديد، غير بعيد عن الموقف الرسمي.

ومن الفوارق بين المثقفين الايرانيين محل دراسة الباحث مهرزاد بروجردي ونظرائهم العرب الذين درسهم هشام شرابي، ان الفريق الاول، موحد في انتمائه الديني بحكم البيئة الايرانية المسلمة فيما المثقفون العرب، انقسموا فريقين، رغم كونهما غير متساويين، الاول مسلم والثاني مسيحي مما جعل الكاتب يتعمق في جذور موقف الفريقين من الغرب.

على ان ذلك لم يلغ كون المثقفين الايرانيين، تباينوا في نظرتهم الى الغرب، وغالباً ما انقسموا بين مؤيد الى حد الاستسلام ومعارض الى حد العداء. الا أن ما استنتجه شرابي في كتابه، هو ان المثقفين المسيحيين العرب لم يدركوا القيم والاهداف الغربية المستمدة من الغرب فقط ويتمسكوا بها، بل انهم عملوا على ربط المسيحيين العرب بالغرب حضارياً مما افرز "تبايناً اساسياً فرض حاله في موقف المسيحيين العرب من محيطهم الاسلامي، وفي المقابل، ظل المسلمون ذوو القناعات العلمانية المشابهة، في شكل اساسي نافرين من الغرب مهما تغربوا. لقد اكد المسلم العلماني، برغم تمسكه بالقيم الغربية والافكار المعاصرة، على هويته الاسلامية المستقلة".

واذ يتحدث شرابي عن المثقفين العرب، فانه يجمع بين رجال دين اصلاحيين،

اواخر القرون الوسطى، لكن تأثير التعليم والافكار الجديدة كسر هذا الاحتكار". اما بروجردي، وكل من يتناول موضوع المثقفين في ايران، فلا يشير الى رجال الدين، الذين يصنفون اساساً في مجتمع تقليدي ومنغلق كالمجتمع الايراني، في مستوى ارفع من مجرد مثقفين، وهذا في رأي عامة الناس، في حين لا يقبل المثقفون من غير رجال الدين هذا التصنيف، ويراوحون في نظرتهم الى رجال الدين، بين عدم الاعتراف، كما هو موقف غالبية العلمانيين الايرانيين، والنظرة اليهم على انهم ليسوا افضل من غيرهم من اصحاب الاختصاصات العلمية، كالطب والهندسة، مسقطين عنهم اي قدسية درج العامة على اسباغها على رجال الدين.

هذا الموقف يتبناه مثقفون اسلاميون تحديثيون مثل علي شريعتي وعبد الكريم سروش. وهنا لا بد من التذكير ان تصنيف بروجردي للمثقفين، واقتصاره على غير رجال الدين ربما ينبع من انتمائه الى فئة العلمانيين، ذوي المواقف المسبقة من شريحة رجال الدين، كما هم رجال الدين الذين يملكون في غالبيتهم مواقف سلبية مسبقة من المثقفين غير المدنيين، ولولا مواقف المؤلف المسبقة، لكان اشار الى نماذج من المثقفين الايرانيين من رجال الدين، الذين تجاوزوا في تحصيلهم ومعرفتهم علوم الحوزة الدينية، والذين قدموا آراء كثيرة في موضوع العلاقة من الغرب، فمن الصعب التغاضي عن افكار مرتضى مطهري والدكتور محمد بهشتي، اللذين غابا عن الحياة منذ سنوات الثورة الاولى.

وبسبب توقف الكتاب عند العام ١٩٩٧، حرم الكاتب من الاشارة الى مثقفين جدد من رجال الدين واساتذة الحوزة الدينية، لعل ابرزهم محسن كديور الذي اوصلته افكاره التحديثية الى سجن "ايفين" الشهير في تاريخ المعارضة السياسية في ايران.

عموماً، فان اهم ما يجمع بين كتابي مهرزاد بروجردي وهشام شرابي، هي الارضية الواحدة التي يدرسانها، وهي المثقفون الشرقيون، وموضوع واحد هو موقف هذه الشريحة من الغرب. على ان كتاب شرابي يحمل ميزة مهمة وهي خوضه في تركيبة المثقفين المسيحيين العرب الفكرية. وطبيعة موقعهم من الغرب، وكذلك مساهماتهم في يم معالم النهضة

قبل نحو ثلاثين عاماً كتب الدكتور هشام شرابي كتابه "المثقفون العرب

واحرين عثمانيين مع انتازته الى ان طبقة العلماء (علماء الدين)، كانت "تحتكر المعرفة والنشاط الثقافي لأجيال عدة حتى

الفكرية العربية.

س.م.

"الآخر - العدو" و"الآخر - المفيد"

تطلق كلمة "روشنفكران" الفارسية على المتنورين فكرياً، الا انها تستخدم معادلاً لمفردة "المثقف" العربية. ولأن "التنور" يعني في وعي الايرانيين، خصوصاً خلال العقدين الأخيرين، انفتاحاً على الغرب، او انبهاراً به والدعوة اليه، بما يعنى "التغرب"، فان هذه المفردة، ظلت ذات دلالات سلبية في الوعي الايراني المعاصر الذي شكلته الثورة الاسلامية عام ١٩٧٩، والتي يُعد الخصام مع الغرب أحد أهم عناصرها الفكرية.

وكان من نتيجة هذا، ان "السلبية" طفت على الموقف من كل المثقفين الايرانيين غير الدينيين، اي غير المنتمين الى تيار ثورة شباط، وهو ما أدى الى انزواء العشرات من هؤلاء، في الظل، فيما فضل عدد كبير منهم الهجرة، ليتخذوا من عواصم الغرب، واولاها واشنطن مقراً لاقامتهم.

الا ان المرحلة الجديدة، شهدت ظهور جيل جديد من المثقفين الدينيين، من خارج شرعية رجال الدين، بدأوا يطرحون الاسئلة – الاشكالية حيال الكثير من المفاهيم والقيم الجديدة التي ظهرت منذ ١٩٧٩، والتي تحوّل بعضها "ثوابت" لا تقبل المساس، في رأي، البعض، وفي مقدم هذه الامور، العلاقة العدائية مع الغرب ومبرراتها. وقبل ذلك كيف يجب ان تكون هذه العلاقة، و"كيف يجب ان ننظر الى الغرب"؟

ورغم أن هؤلاء المثقفين وجدوا حرية كبيرة في طرح افكارهم بداية، باعتبارهم خارجين من رحم المرحلة الدينية الجديدة، الا ان هذه الحرية بدأت تضيق امام بعضهم بعدما بدأوا يمسون بافكارهم ونظرياتهم وتساؤلاتهم، "ثوابت" المرحلة الجديدة، خصوصاً ما يتعلق منها بالعلاقة مع الغرب وموقع رجال الدين، و"قدسية" الفكر الديني.

ومن هؤلاء عبد الكريم سروش الذي وصل الامر به الى حرمانه من التدريس في الجامعة، ومن الحديث في اي مكان عام، او مع اي صحيفة.

كتاب "المثقفون الايرانيون والغرب"* يبحث في ظاهرة المثقفين الجدد في ايران، اي الذين برزوا خلال العقدين الاخيرين، من خلال نظرتهم الى الغرب، وهي ليست نظرة موحدة، بل تتباين بشدة بين فريقين: الاول يرى في الغرب شراً مطلقاً، وخطراً داهماً على الهوية الثقافية والدينية لايران، وقد اختار المؤلف مهرزاد بروجردي تسليط الضوء على رضا داوري كنموذج لهذا التيار فيما اختار عبد الكريم سروش، نموذجاً للتيار الآخر الذي يرفض النظر الى الغرب ككل واحد، بل يدعو الى النظر الى كل بعد من ابعاد الغرب على حدة، الامر الذي يتيح الاستفادة من الجوانب الايجابية المفيدة واستبعاد الجوانب السلبية التي تهدد الهوية الايرانية.

ورغم ان المؤلف يذكر انه يهدف الى مناقشة افكار مثقفي ما بعد الثورة الاسلامية من غير رجال الدين، حيال الغرب، الا ان غالبية صفحات الكتاب، جاءت لتخوض في موقف المثقفين الايرانيين من الغرب خلال العقود التي سبقت ثورة شباط ١٩٧٩، من خلال نماذج اختارها، أهمها جلال آل احمد الكاتب والمثقف الرمز في تاريخ الفكر والثقافة الايرانيين.

في تلك المرحلة، حيث كانت السلطة الملكية الحاكمة، وثيقة الصلة بالغرب، برز الموقف المناقض للغرب، داخل شريحة المثقفين التحديثيين، غير المنسجمين مع السلطة، وغالبيتهم من ذوي الميول او الانتماءات اليسارية. وهكذا جاء الموقف من الغرب، احد عناصر الفرز بين مثقفين مدعومين من السلطة، وآخرين معارضين، ليس بالوسائل السياسية، بل بالادوات الثقافية، عبر الدعوة الى الحفاظ على الهوية الايرانية الاصلية، امام هجوم الثقافة الغربية.

وقد وضع جلال ال احمد، كتاباً حمل اسم "التغرب" تضمن انتقادات لاذعة للسلطة، وللمثقفين المتغربين. ومن هذا الكتاب يصف آل احمد التغرب بانه اعراض أصابت حياة الناس وحضارتهم وافكارهم. ولم ينزّه آل احمد البيئة الايرانية من المساعدة في "الاصابة" بهذه الاعراض، ملقياً مسؤولية ذلك على المثقفين الذين خصهم بكتاب مستقل سمّاه "في حكومة وخيانة المثقفين".

ويشير المؤلف، خلال عرضه لنماذج من المثقفين الايرانيين في موقعهم من الغرب، خلال العقود الاخيرة، الى ان تيار التصدي للغرب، يستند في غالبية رموزه، بما فيها اليسارية الى قاعدة "الاصالة" الايرانية والحفاظ على الهوية؛ الى درجة ان آل احمد، واحسان نراقي يريان ان "الغرب لا يملك ما يضيف الى الثقافة والحضارة الايرانيين". فضلاً عن ان غالبية منتقدي الغرب، لم يتخذوا مثل هذه المواقف عن بعد، بل انهم درسوا في مدارس غربية، وبعضهم اكمل دراساته العليا في عواصم غربية أيضاً مثل احسان نراقي الذي درس في السوريون وسيد حسين نصر الذي حصل على الدكتوراه من جامعة هارفرد.

لكن المؤلف يقتصر في بحثه عن موقف المثقفين الايرانيين من الغرب منذ العام ١٩٧٩، على المثقفين الدينيين من غير رجال الدين، مثل شروس وداوري كما اشرنا تاركاً موقف المثقفين الليبراليين، مبرراً ذلك، بأن هؤلاء آثروا الانزواء، او اختاروا المنفى في عواصم الغرب. صحيح ان مثقفي الداخل من الليبراليين، لم يكن بامكانهم نشر افكارهم خلال اكثر من عقد ونصف، وتالياً لم يرشح عنهم ما يدل على موقفهم من الغرب، وهل ان موقفهم من النظام الاسلامي، ذي النزعة العدائية للغرب دفعهم الى اتخاذ موقف ايجابي منه ام لا، الا ان البحث عن مثل هذا الموقف لم يكن بالامر العسير، خصوصاً خلال السنتين الاخيرتين اي منذ وصول الدكتور محمد خاتمي الى الرئاسة وتركيزه على وزارة الارشاد التي فتحت المجال واسعاً امام حركة النشر. ولم يدرك مؤلف "المثقفون الايرانيون والغرب" هذه المرحلة كونه اصدر كتابه قبل انتخابات ١٩٩٧.

فيما شهدت المرحلة التالية (منذ أيار ١٩٩٧ وحتى الآن) تغييرات كبيرة، على صعيد عودة افكار المثقفين الايرانيين من غير الدينيين، الى الظهور ومعها ظهرت نزعة هؤلاء الى الانفتاح على الغرب. وربما كان ذلك اثار مخاوف الدينيين من المتسلحين بـ "ثابت" عدائية الغرب للشرق وتالياً ضرورة الابتعاد عن هذا، الغرب، على ان موقف المثقفين الايرانيين هذا، لم يعد مقتصراً على الليبراليين، بل حمله أيضاً مثقفون دينيون مثل عبد الكريم سروش، الذي تعرض للحظر الرسمي قبل ان يصل عهد خاتمي ليساعده في استعاده حريته الفكرية.

عموماً، فان المؤلف يعتبر ان ادراك حقيقة موقف المثقفين الايرانيين من الغرب، أمر في غاية الصعوبة والتعقيد. ويرى ان أهم تحد امام هؤلاء المثقفين هو كيفية تجاوز اشكالية الازدواجية (الاصالة، الحداثة) في فكر المثقفين الايرانيين.

سالم مشكور

* الكتاب روشنفكران ايراني وغرب (المثقفون الايرانيون والغرب).
الكاتب: مهرزاد بروجردي.

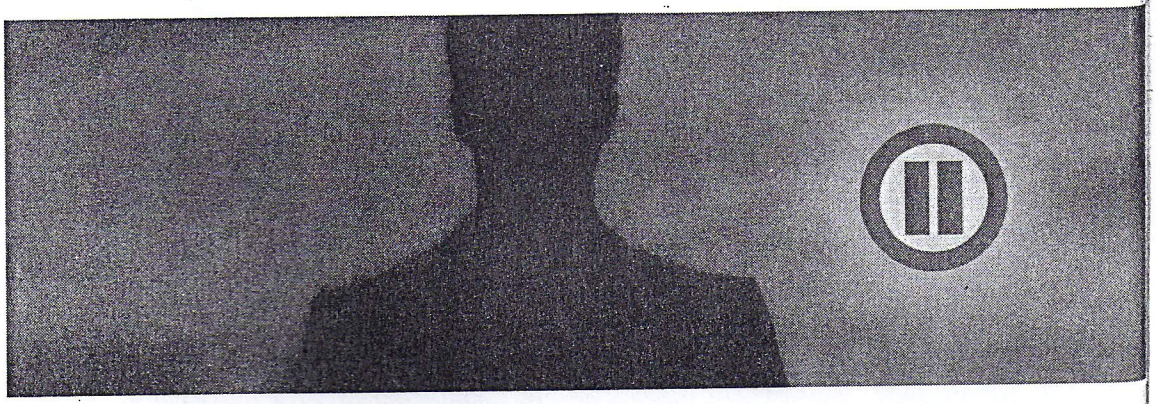

السيد بول - ريته صفا